AL-TASAMOH

التسامح

فصلية . فكرية . إسلامية

السنة الثامنة

شتاء
1431 هـ
2010 م

29

جزيرة جربة: جزيرة المساجد

رياض المرابط*

تمثل جربة اليوم أحد أهم الأقطاب السياحية في البلاد التونسية وشرقية المتوسط، ولقد تأتى لها ذلك بفضل مزايا الجغرافيا:

– فهي بلد الفصل الخامس أو بلد الربيع الطويل؛ ولكن أيضا بفضل ثراء تجربتها التاريخية الخصبة التي رصعتها بجملة من المواقع والمعالم، أهمها مساجد الجزيرة التي يحلو للذاكرة الشعبية أن تقول: إنها على عدد أيام السنة، ونجد صدى تاريخ جربة منذ الملحمة الهوميرية، كما كانت جربة محطة من محطات التوسع الفينيقي، كما كان بالجزيرة حظها من الرومنة، لكن لا يعنينا هنا أن نستعرض كامل تاريخ جزيرة جربة * ما يهمنا أكثر أن نقدم للقارئ الكريم كيف أصبحت الجزيرة ملاذا للإباضية، وكيف نجح هؤلاء في القرون الخمسة الأولى من الهجرة النبوية في المحافظة على هويتهم المذهبية وشخصيتهم الثقافية بفضل تنظيم محكم محوره

◆ باحث وأكاديمي من تونس .

نظام العزابة، وأداته المدرسة والمسجد رغم الضغوطات الداخلية والخارجية. ولعله من المفيد أن نقدم قبل ذلك بسطة موجزة عن الخصائص الجغرافية للجزيرة، وسنكتفي فيما يخص التاريخ القديم بالتعرض إلى أصول تسمية الجزيرة.

– مدخل لجغرافية جربة وتاريخ تسميتها

1– بلاد الفصل الخامس

تقع جزيرة جربة بين خطي طول 9.30–9.70 شرقا وخطي عرض 37.37–37.68 شمالا في الركن الجنوبي الغربي من الحوض الشرقي للبحر المتوسط بخليج قابس أو سرت الصغري عند القدامى جنوب البلاد التونسية، مما يجعلها منفتحة في الوقت ذاته على تأثيرات الصحراء والمتوسط.

يقارب شكل الجزيرة العام من المربع، ويبلغ محيطها 125 كلم، ومساحتها الجملية 514 كلم2، من الناحية الجغرافية[1] تتميز تضاريس الجزيرة البحرية بانخفاضها؛ حيث تحيط بها خطوط من المياه الضحلة، توازيها تلال رملية وسباخ، أهمها سبخة مليتة، وسبخة الحشان في الشمال والشمال الشرقي وسبخة القشتيل في الجنوب، ومن حيث البنية تمثل الطوابوغرافيا البارزة تواصلا وتماثلا للطبوغرافيا تحت المائية؛ إذ تبدو الجزيرة كصفحة خضراء في عرض البحر، ويتكون هيكل الجزيرة العام من طين جبسي، تغطيه قشرة كلسية صلبة وسميكة توفر حجارة «الصم» المستعملة في البناء، أما التربة فرملية. ينتمي مناخ جربة بحكم موقعها إلى ما يسميه علماء الجغرافيا بالمناخ المتوسطي السباسبي، وهو صنف انتقالي بين المناخ المتوسطي والمناخ الصحراوي، ويتميز بضعف الأمطار (205مم سنويا 53 بالمائة منها في فصل الخريف)، وارتفاع نسبة الرطوبة (11.4غ / م3)، واعتدال معدلات الحرارة (20.1 درجة سنويا، أدناها 12.1 درجة من شهر يناير وأقصاها 27.7 درجة في شهر أغسطس) وعليه فإن الفصل الدافئ فيها طويل يمتد من إبريل إلى أكتوبر.

المياه الجارية بالجزيرة تكاد لا تستحق الذكر، والمياه الجوفية فقيرة بشكل عام، وتنحصر المياه الأقل ملوحة في الشمال الشرقي من الجزيرة، أما الغطاء النباتي فهو بدوره فقير.

من الناحية البشرية يقطن جزيرة جربة حاليا زهاء مائة ألف شخص مسلمون إباضية ومالكية، يشكل قسما كبيرا منهم امتداد القبائل أمازيغية (بربرية) شهيرة في العصر الوسيط مثل هوارة، نفوسة، زناتة، لماية، زواغة، سدويكش، كتامة...مع عناصر أخرى متعربة وافدة في بداية العهد العثماني علاوة على أقلية من اليهود المتواجدين بالجزيرة منذ القرن السادس قبل الميلاد حسب روايتهم المتداولة.

يتميز المشهد العمراني بالجزيرة بالتشتت السكني؛ فباستثناء بعض المراكز الحضرية التي لم تكن إلي عهد قريب سوى أسواق –كحومة السوق وميدون وأجيم وقلاقة والماي– فإن الوحدة الترابية القاعدية هي الحومة التي هي وحدة جغرافية اجتماعية متقلبة الحدود ذات سكن مشتت تتألف من مجموعة من المنازل، الواحد منها عبارة عن تداخل للمعمار والمزدرع يجمع طائفة من المساكن، يسمى الواحد منها حوشا، ولئن تتميز المنازل بوحدتها العائلية؛ فإن الحومة أيضا لا تخلو من دلالات عشائرية وقبلية، وهو ما تؤكده طوبونميا (أسماء المواقع) الجزيرة.

2– اسم الجزيرة

عرفت جزيرة جربة في القديم بأسماء عديدة؛ ولكن لا أحد منها له أصل محلي متأكد؛ لذلك يري بعض من اهتم بتاريخ جربة القديم [2] أن اسم جزيرة اللوتس الذي جاء في الأوديسة[3] ليس سوى انطباع للبحارة القدامى الذين لاحظوا عند مرورهم بالجزيرة اعتماد أهلها على نبات اللوتس في غذائهم، فهو إذا صفة وليس اسما. المعطى الوحيد في خصوص هذه المسألة –والذي قد يقدم أقدم اسم محلى للجزيرة– يمكن استجلاؤه من الوصف المبهم الذي تركه هيرودوت لسواحل السرت «Les Syrtes»[4]؛ إذ يتحدث عن بحيرة تريتون التي بوسطها جزيرة «فلا»، فقد تكون هي جربة[5]، وفي رحلة سيلاكس (ق4ق م) يبرز اسم آخر مستوحى أيضا من الخصوصية الطبيعية «براكيون» «BRACHEION» أي جزيرة المياه الضحلة[6]، وفي نفس الفترة يبرز لدى تيوفراست اسم «FARIDE» «فريد» ذي الملامح السامية[7].

ومنذ القرن الرابع قبل الميلاد برز مع STADIASME اسم مينانكس كعاصمة وكاسم للجزيرة، وتواصل مصادر الحقبات الموالية اعتماد نفسها التسمية، وهنا يفترض أيضا أصل سامٍ لهذا الاسم؛ حيث قرأت مينانكس بـ«م– ن

ق ص» أي نقص الماء، وهي خاصية طبيعية للجزيرة وللموقع نفسه؛ حيث إن موقع مينانكس هو فعلا أقل المنطقة أمطارا في الجزيرة»[8].

أما الاسم المتداول «جربة» فقد برز في مصادر القرن الرابع للميلاد، حيث يذكر أوريليوس فيكتور AURELIUS VICTOR في معرض حديثة عن الإمبراطورين غاليوس وغاليسيانوس (حكما سنة 251م) جربة كاسم للجزيرة:

[9]CRATI IN INSULA MENINEE QUAE NUNL GIRBA DICITUR

ويدعم هذا الاسم نقيشة عثر عليها بحفريات البرج الكبير تعود للقرن الثالث، كما يتوإلى ذكر مدينة جربة في القرون، الموالية والتي تضعها خريطة بوتنقار شمال غربي الجزيرة غير بعيد عن حومة السوق الحالية.

أما تعليق ابن خلدون الذي يقدم جربة كاسم لإحدى قبائلها فإنه لا يستند إلى برهان، ويتضارب مع معطيات سابقة وثابتة فيما يخص وجود الاسم على الأقل.

– جربة من الفتح الإسلامي إلى حلول أبي مسور اليهراسني (47 هـ– حوالي 331 هـ667م– حوالي 943م)

1– الفتح وتسرب المذهب الإباضي خلال العهد الأموى

تتفق المصادر أن جربة فتحت سنة 47هـ / 667م على يد رويفع بن ثابت الأنصاري قادما اليها من طرابلس[10] دون أن نظفر بتوضيحات أخرى حول هذه الأسبقية الزمنية، هل لأن الجزيرة تعدّ آنذاك من نواحي طرابلس التي عين رويفع واليا عليها من قبل معاوية بن أبي سفيان سنة 46هـ / 666م؟ أم أنها مجرد غزوة استطلاعية في أطراف إفريقية تمثل غنائمها شحذا إضافيا لعزائم الجند العربي الذي بدأ يبتعد رويدا رويدا عن قواعد الخلافة؟ خصوصا وأن خبر هذا الفتح يرافقه خطاب لقائد الحملة يتمحور حول عدم الإسراف في التمتع بالغنيمة؛ حيث يقول رويفع لجنده «...لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي ماؤه زرع غيره –يعني إتيان الحبإلى من السبي– ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فيء المسلمين حتى إذا أجحفها ردها فيه، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس ثوبا من فيء المسلمين حتى إذا أفلقه رده فيه...»[11]. وتحمل هذه الخطبة على الاعتقاد بأن جربة فتحت عنوة.

من جهة أخرى لا نعلم كيف قدم رويفع إلى الجزيرة: عن طريق البرأم عن طريق قطع من الأسطول الإسلامى، الذي بدأت تكونه وتعتني به الدولة الأموية كما افترض ذلك البعض، خصوصا وأننا نجد من بين قادة الحملة من تولى مهام حربية بحرية مثل فضالة بن عبيد الذي ولي بمصر القضاء والبحر[12].

تساؤل آخر لا نملك للإجابة عنه معطيات ذات شأن، وهو ماهو مصير الجزيرة بعد الفتح؟ ومن أدار شؤونها؟ وهل يجب الاطمئنان إلى ما يورده ابن خلدون، ويوافقه فيه مؤرخو الإباضية ضمنيا[13] أن الإسلام ونظامه الجديد ثبت بالجزيرة بكل يسر دون أن تتورط جربة في اضطرابات عصر الولاة الأمويين؛ إذ يذكر النص «ظلت تحت الإسلام إلى دخول الإباضية»[14]، وكيف نطمئن إلى ذلك والمفروض أن الجزيرة لم تكن بمنآى عن اضطرابات عصر الولاة فقابس المجاورة لها كانت إلى حلول حسان بن النعمان «معقلا يتحصن أهلها(بها) من كل أمير يمر بهم»[15].

عموما لا نملك حول عصر الولاة، الأمويين معطيات ذات بال إلا من خلال ما يدور من أحداث في المناطق المجاورة، لذلك فإنه وإن بدا مقبولا أن يكون المذهب الإباضي قد أخذ في الانتشار مع بداية القرن الثاني بجهات طرابلس وجبل نفوسة؛ فإن الأمر محل نقاش بخصوص جربة؛ إذ يصعد البعض بذلك إلى العهد الرستمي، ويقر البعض الآخر أن جربة خضعت للتأثير الإباضي منذ المحاولات الأولى لإقامة دولة إباضية سنة 126هـ / 743م إبان ثورة عبد الله بن مسعود التجيبي وخليفته عبد الجبار بن قيس المرادي والحارث بن تليد الحضرمي[16]، ويفترض البعض الآخر أن ذلك ممكن الحدوث عند ثورة إسماعيل بن زياد النفوسي الذي بايعه الإباضية بالإمامة، وتمكن من السيطرة على قابس، ومن ثمة قد تكون بعض سراياه طرقت جزيرة جربة، وأدخلت معها المذهب الإباضي اعتبارا للروابط الوثيقة التي تجمعهم بسكان جبل نفوسة[17].

2- جربة في دائرة النفوذ الرستمي

ماهو مصير جربة خلال عهد الولاة العباسيين؟

يتواصل الغموض أيضا خلال هذه الفترة؛ حيث لا نعلم عنها شيئا، باستثناء حركة الإمام الإباضي أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري، التي تمكنت من

السيطرة على معظم إفريقية بين 140هـ و 144هـ / 758م - 761م، وحري بالذكر أن أبا الخطاب تمكن سنة 141هـ / 758م من احتلال قابس، ومن ثمة جربة[18]؛ لكن أي مآل لجربة بعد قضاء العباسيين وقائدهم محمد بن الأشعث على هذه الثورة؟

يفترض المهتمون بتاريخ جربة أن الجزيرة لم تخرج أبدا عن دائرة النفوذ الإباضي خلال فترة أئمة نفوسة منذ عهد الإمام عمر ميمون 144-154هـ / 761-770م على الأقل، وعهد الإمارة الرستمية[19]؛ ولكن يحق لنا أن نتساءل: كيف يمكن أن يهمل فعلا الولاة العباسيون ومن بعدهم الأمراء الأغالبة هذا الثغر البحري، خصوصاإذا ما اخذنا بعين الاعتبار:

- **أولا:** السياسة العباسية الحازمة لإخضاع كامل إفريقية، وخاصة جهات طرابلس وماحولها.
- **ثانيا:** أهمية جربة في خط السواحل التي حرصت الخلافة العباسية على ضمان أمنه في نطاق خطة متكاملة، أوفدت لتدارك نقائصها هرثمة بن أعين سنة 179هـ / 795-796م.
- **ثالثا:** حرص الأغالبة على الاحتفاظ بالمراكز الساحلية، خصوصا وقد باتت أساطيلهم تصارع البيزنطيين بلا هوادة في المتوسط إلى أواسط القرن الثالث[20].

وفي هذا الإطار نفهم مثلا تمسك عبدالله بن إبراهيم بن الأغلب والي طرابلس بنفوذ الدولة الأغلبية على المدينة وساحلها، وتسليمه بنواحيها للرستميين إبان حملة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم عليها سنة 196هـ / 810م[21]. وعليه فإنه ليس من المستبعد أن تكون جربة قد خضعت جزئيا أو مؤقتا للنفوذ الأغلبي، غير أن موقعها الهامشي بالنسبة لكل من القيروان وتيهرت، من جهة وتداخل حدود هاتين الدولتين خصوصا في جهات جنوب إفريقية من جهة أخرى تمنعان من البت نهائيا بهذا الشأن.

ولئن توحي المصادر الإباضية أن جربة كانت جزءا من الإمارة الرستمية؛ حيث نطالع للشماخي أن الإمام عبد الوهاب بن رستم أرسل في أواخر القرن الثاني

قطعان بن سلمة الزواغي في جيش إلي قابس فحاصرها وكان خارج قابس مطماطة وزنزفة ودمر وزواغة وغيرها تحت ولايته وكذا جربة[22] فإن سلطة هذه الدولة على الجزيرة لا تبدو مباشرة؛ حيث إن العامل الرستمي كان مقره قابس[23].

وتبرز جربة خلال العهد الرستمي بحكم موقعها البعيد عن العاصمة الأساسية بتيهرب ملاذا للمعارضين الإباضيين من النكار الذين أنكروا إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، وعابوا عليه استبداده بالأمر مطالبينه «ألا يقطع أمرا دون مشورة جماعة من المسلمين معلومة»[24].

وقد مثلت الجزيرة خلال القرن الثالث للهجرة ملاذا لذوي النزعات الثورية[25] والمتمردة على السلطة الرستمية، فنجد أن بعض شيوخ بني بهراسن ينصح الخَلَفِيّة بالدخول إلى جربة، والتحصن بها في أواخر العهد الرستمي[26]، ولقد انحاز إليها فعلا الخلفية في إمامة أفلح بن عبد الوهاب الرستمي[27]، وتواصل تواجدهم بالجزيرة إلى القرن الرابع هجري / العاشر ميلادي.

جعل سقوط إمارة بني رستم سنة 296هـ / 908م على يد الفاطميين الجزيرة تدخل في مرحلة من الاستقلال الكلي لم تطل؛ حيث أرسل الفاطميون -بعد بناء عاصمتهم واستكمال أسطولهم- حملة إلى الجزيرة يقودها سليمان الداعي فأخضعها، وكانت ثورة ابن يزيد مخلد بن كيداد النكاري المعروف بصاحب الحمار 331هـ / 942-943 م مناسبة أخرى لتستقل الجزيرة بأمورها، وليتدعم النفوذ الإباضي النكاري سواءا عن طواعية -كما يوحي بذلك منطق الأحداث وخاصة صلة جربة بالحركة النكارية- أو بالقوة وفرض المذهب النكاري على أهالي الجزيرة كما يشير إلى ذلك ابن خلدون، ويمثل القضاء على الحركة النكارية سقوط آخر أحلام الإباضية في إقامة دولتهم، ولعلنا في هذا الصدد نجاري ابن الأثير في أن الجزيرة قبلت دعوة الخليفة الفاطمي الاعتراف بسلطته حين كان بقابس، وقدمت له البعض من أبنائها كرهائن، وذلك سنة 335هـ / 946م، أما بالنسبة لابن خلدون[28] فإن المنصور قد أخذ الجزيرة وقضى على أنصار أبي يزيد.

- أبو مسور اليهراسني وتوطيد المذهب الإباضي الوهبي

1- أبو مسور يعيد التوازن المذهبي لصالح الوهبية

يعدّ أبو مسور يسجا بن يوجين اليهراسني داعي الوهبية الأول بجربة، وقد عاش بين النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة / التاسع للميلاد والنصف الأول من القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد[29]، ويبدو أنه استقر بالجزيرة في بداية القرن الرابع أو بعد انقضاء ثلثة الأول أثر القضاء على ثورة صاحب الحمار، سيما وأن جل مؤرخي الإباضية يعدونه قادما لنصره أقلية الوهبية بالجزيرة[30]، ويمثل انكسار النكار على المستوى السياسي والعسكري خير حافر لنشر المذهب الوهبي دون مشاكل كبرى بالجزيرة.

إن الوضع الذي وجده أبو مسور بجربة يمثل حصيلة القرون الثلاثة المنقضية من تاريخها الإسلامي، ويبدو أن الجزيرة بفضل بعُدها نسبيا عن مراكز الاضطرابات الكبرى كانت في وضع متميز اقتصاديا خلال هذه الفترة، فالبكري الذي نقل عن وثائق القرن الثالث للهجرة يؤكد -فضلا عن ثرائها الفلاحي- على وجود كميات الذهب الوفيرة بها، مما يدعو إلى الاعتقاد أن جربة كانت أحد أطراف تجارة الذهب مع بلاد السودان في بواكير العهود الإسلامية، ولعل ذلك لم يكن سوى استعادة لدور عتيق لعبته الجزيرة كهمزة وصل بين الصحراء والعالم المتوسطي[31]، وجدير بالذكر أن أبا مسور قدم إلى الجزيرة في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة تاجرا ليمتار لأهل نفوسة في سنة مسغبة؛ بينما كانت الجزيرة وفيرة الأطعمة ورخيصتها[32]، وكان ذلك قبل أن يتحول للاستقرار بها نهائيا.

دفع تحول أبي مسور إلى جربة في مثل هذه الظروف الاقتصادية بعض المؤرخين إلى تنزيل ذلك في إطار سعي المجموعة الوهبية السيطرة على سوق جديدة «يمكن أن توفر المنتوجات الفلاحية لجبل نفوسة»[33].

على المستوى الاجتماعي يبدو أن أبا مسور وجد زعماء النكار يمثلون القوة الاجتماعية المهيمنة، فقد كان إمامهم خال أبي مسور خلف بن أحمد «ذا مال كثير

يمضي بأحمال الدقيق يطعم بها الناس»[34]؛ وقد دخل أبو مسور مع النكار في منافسة سياسية ومذهبية اقتضت اقتحامه لمجالس النكار، وتحمله لسخريتهم[35] منزها لسانه عن إجابتهم، ومعرضا عن وعود وهبية زواغة وجبل نفوسة باستعمال القوة العامة[36] مستفيدا وآخذا بعين الاعتبار في الوقت نفسه من قرابته بخاله زعيم النكار خلف المعروف بياتي المستاوي.

ولم تقتصر المنافسة على المجال العلمي والعقائدي فحسب؛ بل يبدو أنها تجاوزت فعلا ذلك إلى الميدان الاقتصادي؛ حيث أسس أبو مسور لأهل جربة سوقا يتبايعون فيه[37] بالإضافة إلى شروعه في تأسيس جامعة قرب حومة السوق بحومة الحشان التي استوطنها[38].

حول أبو مسور ثم ابنه أبو زكريا فصيل المسجد الكبير بالحشان إلى مدرسة علمية عرفت بالمدرسة المسورية قبل أن تنشأ المدارس الرسمية بالشرق ممثلة في نظامية بغداد.

2- نظام العزابة

يتزامن انتشار الوهبية بجربة إذاً مع انهيار إمامات الظهور في المغرب الأوسط، وفشل كل محاولات التمرد، مما أفرز ظهور تيار إباضي أكثر اعتدالا، تنبني مواقفه السياسية على قبول الأمر الواقع وبذل كل الجهد للمحافظة على العقيدة الإباضية، وذلك في إطار ما يسمى بمرحلة الكتمان[39]، وقد ابتدع الفكر الإباضي لتحقيق ذلك أسلوبا لتأطير المجتمع والمحافظة على كيانه دون الاصطدام بالسلطة السياسية القائمة، فكان نظام العزابة هو الكفيل بتحقيق هذه الغاية؛ حيث يتنزل هذا النظام منزلة السلطان العادل الذي عدمه أهل المذهب، وهو عندهم فرض كفاية[40]، ونجد أن اليهراسينيين وزعيمهم فصيل بن أبي مسور قد لعبوا دورا أساسيا في ابتكار هذا النظام[41]، يمثل تركيز نظام العزابة تحولا هاما في تاريخ المجتمع؛ حيث أوجد حلا للمعادلة الصعبة بين متطلبات إمامة الدفاع -التي هي بمثابة المقاومة السلبية؛ لأنها لا تقوم في الفكر الإباضي إلا عند العجز عن إظهار المذهب بما أن غايتها «المحافظة على الدين بحيث لو ظهر لعطل عنه»[42]- وبين ضرورة الحفاظ على استقلالية وشخصية المجتمع الإباضي؛ حيث يمثل العزابة هيئة

ذات طابع نخبوي مهمتها «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد واللسان»؛غير أن ممارسة السلطة التنفيذية الكاملة على المجتمع الإباضي ترتهن بموازين القوى مع السلطة، فبالنسبة إلى إقامة الحدود نلاحظ أن ذلك يرتبط بمدى سكوت الدولة عن القيام بها، «فإن شعر العزابة أن لا ضرر عليهم في إقامة الحدود فيقيمونها... وإن رأوا أن ذلك يفزع السلطان، ويشتت شملهم فإنهم يكتفون بتطبيق مبدأ الولاية والبراءة»[43].

تشمل سلطة العزابة كل الميادين تقريبا، من الإشراف على العبادة والمساجد والقضاء، والإشراف على الأسواق، والنظر في مصالح المدينة، والإشراف على الاحتفالات الاجتماعية إلى الربط ببقية الإباضية [44].

غير أن العزابة لا يمثلون نخبة فكرية وسياسية فقط؛ بل أيضا نخبا اجتماعية على الأقل عند تأسيس هذا النظام في بداية القرن الخامس، فأبو زكريا فصيل بن أبي مسور أحد رواد هذا النظام، وكان « يصرف الدنانير بالدراهم ويجعلها في القراطيس ويضعها سرا في أوعية التلاميذ»[45]، كما كان يحض القوم على الإنفاق على التلاميذ[46]، وحتى وإن لم يمثل العزابة بالضرورة «أرستقراطية» حاكمة فإن نشاطهم ضامن لأمن المجتمع واسقراره، وهو ما تحتاجه القوى الاجتماعية المهيمنة أيا كانت انتماءاتها المذهبية.

إن استقرار الوهبية بجربة وترسيخهم لكيانهم عبر نظام العزابة لا يجب أن يحجب عن الباحثين حقيقتين لا تولي لهما المصادر الوهبية -و لا الدراسات- كبير عناية:

- **أولها** تواصل تواجد النكار من زواغة وغيرها في مواضعهم التقليدية شرقي وجنوبي الجزيرة خلال القرن الخامس وما بعده، واختلاطهم بمجالس الوهبية كما كان يحدث زمن أبي مسور، وتواصل المناقشات المذهبية، من ذلك أن «اجتمع أبو زكريا مع شيخ من شيوخ النكار في ملأ من زواغة وفيه الوهبية والنكار، وجرى بينهما الكلام إلى أن قال النكاري» يا أبا زكريا، نحن وأنتم نكار؛ لأننا قد أنكرنا على علي بن أبي طالب ما فعل من التحكيم فقال الشيخ (يقصد أبا زكريا فيصل بن أبي مسور وعلم أنه من بعض مكائدهم): أما أنا فلست بنكاري[47]، وكان

للنكار أيضا تنظيمهم الذاتي الذي لا نعلم عنه شيئا سوى أن زعامتهم بيد شخصية قد تكون تحمل لقب المقدم مثل ابن كلدين الذي يصفه التيجاني «بمقدم» أهل جربة عند أحداث 431هـ / 1039م الغامضة[48].

– **المسألة الثانية** هي أن السلطة المركزية الزيرية لم تكن غائبة تماما عن جربة؛ حيث تثبت النصوص وجود عمال لبني زيري زمن أبي زكريا فصيل الذي نجح في إقامة علاقات ودية معه إلى درجة أنه كان يناقشه في مقدار الضريبة، ويتشفع للناس عنده[49]، والغالب على الظن أن أبا زكريا فصيل قد أرسى هذه النوعية من العلاقة مع ممثلي السلطة المركزية بعد الحملة الزيرية سنة 431هـ / 1039؛ ذلك أن النصوص الإباضية تتحدث عن «عامل المسودة» حين تتحدث عن تدخلات فصيل حول الضريبة[50]، مما يعني أن هذه الوقائع كانت تدور بعد خلع الزيريين طاعة الفاطميين وإعلانهم الولاء للخلافة العباسية سنة 435هـ / 1039م.

والمهم أن نلحظ في حملة 431هـ / 1039م الصنهاجية –والتي قادها إبراهيم بن ينمو الوليلي[51] والتي تحاول المصادر الإباضية أن تنسبها للنكار بزعامة زواغة– أنها كانت مناسبة لتأسيس استراتيجية سياسية تزعمها البيت اليهراسني تقوم على مداراة السلطة الحاكمة، واستغلال ذلك كستار بين السلطة نفسها والمجتمع الإباضي حفاظا على شخصيته، وتترجم هذه الاستراتيجية عن المأزق التاريخي الذي وجد الإباضية فيه أنفسهم بفقدانهم لجهاز الدولة أو حتى مشاريع جدية لإقامة هذا الجهاز، وهو ما نلمسه في قول فصيل «ما علمنا كيف نتكلم ولا كيف نسكت»[52]. من جهة أخرى نلاحظ أن السلطة الزيرية قد قبلت هذه لمعادلة لذلك استباح ابراهيم بن ينمو جربة نهبا وغصبا حاشا بني يهراسن[53].

وقد شمل سخط المعز بن باديس النكار والوهبية على حد السواء؛ حيث نجد من بين زعماء الوهبية من تورط في هذه الانتفاضة من أمثال أبي عمر النميلي وأبي موسى عيسى بن السمح وأبي محمد بن كاموس الذين يجمعهم التجاني بقوله: «رؤوس الفتنة من مشايخ جربة»[54].

ولم تستقر الأوضاع كثيرا للصنهاجيين بجربة خصوصا بعد أن غرقت دولتهم في تبعات الانفصال عن الخلافة الفاطمية، ومنها زحْف الهلاليين على إفريقية

دون أن يطؤوا جربة قط، واختلال الأمن بالمسالك التجارية مما أتاح لجربة استغلال هذه الوضعية –أو بالأحرى تجاوزها– للتحول إلى ما يشبه الجمهوريات الإيطالية؛ حيث نشطت تجارتها البحرية، وظهر بها نشاط قرصنة محلي، ولئن حاول مؤرخو الأباضية التبرء منه[55] فإنه يعبر عن استقلالها السياسي والاقتصادي وعن حيوية قواها الاجتماعية[56]، وقد كلف نشاط القرصنة الجزيرة حملة عسكرية جديدة أمر بها يحيى بن تميم الصنهاجي في مطلع القرن السادس للهجرة (509هـ / 1115م) قضى بواسطتها على الأسطول الجربي، وفرض طاعة اقتصادية أساسا على الجزيرة؛ حيث تعهد الجربيون بقطع نشاط القرصنة، وقصر تجارتهم البحرية على المهدية[57]، وهو ما يعبر عن نجاح القوى المحلية وهبية كانت أم نكارية، رغم ما حل بالجزيرة من اضطرابات في توجيه وتنشيط الحياة الاقتصادية وتنمية الثروة التي لاحظها البكري.

غير أن هذه الحركة الاقتصادية لم تكن لتجلب حرص الدولة الصنهاجسة على فرض سلطتها على الجزيرة فقط؛ بل كانت أيضا من عوامل تحول جربة إلى هدف ذي أولية لأعداء الزيريين في «الداخل» و«الخارج»، وفي هذا الإطار تتنزل الحملة الحمادية ضد جربة حوالي 510هـ / 1120م، ثم الحملة النورمانية التي جهزها ملك صقلية روجار الثاني في أواخر سنة 529هـ / خريف 1135م، فوجد المجتمع الجربي نفسه وجها لوجه أمام قوة أجنبية دون سند من خارج الجزيرة، ومباشرة إثر محن صعبة لإباضية الجزيرة، فلم يفلح أبو ميعود اليهراسني في رد الحملة رغم المقاومة الباسلة التي أرهقت جربة كثيرا[58]؛ لكن المقاومة استمرت لتنتفض الجزيرة سنة 548هـ / 1153م ضد عامل النرمان بها مما كلفها حملة نورمانية أخرى أقسى من سابقتها؛ حيث نهب النصارى جربة وسبوا نساءها وأطفالها، وقتلوا رجالها مما حدا بالناجين منهم إلى طلب الأمان من روجار وشراء أنفسهم وقبول الإدارة النصرانية للجزيرة[59].

هذه النكبة دعمت شعور الإباضية بالإضطهاد وعمقت وعيهم بوضعهم الأقلي؛ لذلك نفهم بيسر كيف تقبلت جربة الموحدين سنة 555هـ / 1160م كمحررين،

وكيف لم تسجل خلال عهدهم 555هـ- 625هـ/ 1160م - 1228م أية ثورات مكنت الجزيرة من استعادة أنفاسها.

خاتمة

لئن يتبرأ الإباضية بجربة وببلاد المغرب عامة من الانتماء إلى الخوارج، فلقد سعى بعض مؤرخين -وعلى رأسهم زعماء الاستشراق الكلاسيكي وتلاميذهم من العرب- إلى ربطهم بالخوارج، والأخطر من ذلك أنهم رأوا في الحركة الإباضية «تعبيرا قوميا بربريا»، والحال أن القيادات الأولى للإباضية كانت عربية قحة كما كانت الحركة الإباضية في المشرق أو في المغرب حركة معارضة سياسية قبل كل شيء واجهت دون ريب حيف السياسة الأموية لتقومها من داخل المنظومة الفكرية الإسلامية وليس من خارجها. انبنت المقاومة الإباضية على أساس فكري عقائدي قبل كل شيء، نجح في تأصيلة نظام العزابة الذي هو ابداع تنظيمي مغربي يمكن تشبيهه بما نسميه اليوم أطر المجتمع المدني، واعتمد هذا النظام بدرجة أولى على قوة الحجة بواسطة مؤسسة الجامع المدرسة، في معادلة صعبة بين هيمنة السلطة المركزية وحاجتها إلى بسط السيادة على كامل أقاليمها، وبين التمسك بالهوية المذهبية والثقافية. في الحالة الجربية نجح التيار الإباضي الوهبي في هذه المعادلة أيما نجاح بينما فشل في ذلك التيار الإباضي النكاري الذي -وكما تبينه وقائع التاريخ منذ ثورة أبي يزيد- اعتمد أكثر على حجة القوة في ظل اختلال موازين القوى، فكان مصيره الذوبان.

تجدر الإشارة أخيرا الي أن الإباضية الوهبية يمثلون اليوم أكثر من نصف سكان جزيرة جربة، ويعيشون في تناغم وتسامح مطلق مع بقية مكونات المجتمع الجربي، حتى أنهم يطلقون على أنفسهم المذهب السني الخامس.

* * *

* حول تاريخ جربة ينظر خاصة:

- بن يعقوب (الشيخ سالم)، تاريخ جربة، ط صفاقس 1985. / بوعزيز (يحي)، «مقاومة جربة للغزوات الأوروبية في القرن XVI»، في أعمال المتلقى حول تاريخ جربة ، 1982، طبعة تونس 1986 ص55-71. / الجعبيري (فرحات)، نظام العزابة عند الإباضية الوهبية بجربة، ط المعهد القومي للآثار، تونس 1975م. / جمعية صيانة جزيرة جربة، جربة جزيرة المساجد (كتيب)، تونس 1991م / حبيب وداعة (الحسناوي)، «العلاقات السياسية والبشرية بين طرابلس وجربة في القرن XVI»، في أعمال الملتقي حول تاريخ جربة،

ط تونس 1986، ص41-48. / حسن (محمد): القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط، دار الرياح الأربع، تونس 1986م.

- «حول الجذور الاجتماعية والسياسية والبشرية للفرق الإباضية الموجودة بالجنوب التونسي في بداية العصر الوسيط»، أعمال الملتقى حول تاريخ جربة، جربة 1982، طبعة تونس، 1986.
- القفصي (عبد الحكيم)، «وثائق جديدة متعلقة بتاريخ جزيرة جربة وعلمائها»، في أعمال، الملتقى حول تاريخ جربة، جربة 1982، ص87-91. / رياض المرابط، مدونة مساجد جربة، تونس 2002. / المريمي (محمد): الفئات الاجتماعية في جربة وعلاقتها بالسلطة المركزية خلال العصر الحديث، رسالة كفاءة في البحث باشراف عبد الحميد هنية مرقونة بالجامعة التونسية، تونس 1990. / التفكير المذهبي وعلاقته بالواقع السياسي والاجتماعي في جزيرة جربة بين منتصف القرن 17 ومنتصف القرن 19م، رسالة تعمق في البحث باشراف عبد الحميد هنية مرقونة بالجامعة التونسية، تونس 1994. / معمر (علي يحي)، الإباضية في موكب التاريخ: الحلقة الثالثة الإباضية في تونس، ط-دار الثقافة، لبنان 1966.

- BOUROUIBA (R), "L'île de Djerba de la conquête musulmane à la conquête Almoahde", Actes du colleque sue l'histoire de jerba (Avril 1982),Tunis, 1986,p55 -73./- BOUSTROF (F), "Document musculman pour servir à une histoire de Djerba", Jerba île méditerranéenne dans l'histoire, (recueil d'Articles anciens), Tunis, 1982, p107 -124./- DRAUDEL (A), "Monographie de l'île de Djerba", Jerba île méditerranéenne dans l'histoire, (recueil d'Articles anciens), Tunis, 1982, p25- 61./-DOUMERC (B), "Les relations commerciales entre Djerba et la République de Venise à la fin du moyn Age), Actes du colloque sur l'histoire de Jerba, Jerba avril1982, Tunis, 1986,p.45 -54.
- EPALZA (M.DE), "Quelques épisodes des relations historiques entre l'Espagne et l'île de Djerba", Actes du colloque sur l'histoire de Jerba, Jerba avril1982, Tunis, 1986,p85-91./- GOLVIN (L), "Djerba à la période des Zirides", Actes du colloque sur l'histoire de Jerba, Jerba avril1982, Tunis, 1986, p35 - 43./- JALLOUL (N), les installations militaires côtières en Tunisie (XVI-XIXe S), thèse de doctorat, Tunis-Zaghouan1995/-MONCHICOURT (Ch.), "l'expédition espagnole de 1560 contre l'île de Djerba", Revue Tunisienne,t.20,1913,p499 - 516 / 627- 653./- QUONIAM (P.), "Histoire préislamique de Djerba", communication présenté lors des Journées de printemps : Jerba Avril1958, (manuscrite), document de l'ASM Jerba, sd.
- STABLO (R.), les Djerbiens, Tunis, 1941./- TLATLI (S.E.), Djerba île des lotophages, Tunis, 1967./- TLATLI (S.E.), "Facette de la personnalité Jerbienne", AL JAZIRA, n°1,p.1.

1 - حول جغرافية جزيرة جربة انظر خاصة:

- JELASSI (F), "Jerba :structure urbaine", Art, Architecture, Amenagement, n°35-. Novembre1978.
- MZABI(H), La Tunisie Du sud est.Tunis, 1993.
- QUESLATI (A), Jerba et Kerkena (île de la côte orientale de la Tunisie). Tunis,1987.

- TLATLI (S.E), Djerba île des lotophage, Tunis, 1967.

2 - Qoniam, "Histoire Préislamique de Djerba, Document de l'ASM Jerba (S D) p3.

3 – هوميروس، الأوديسية، XI، 941.

4 – هيرودوت، التاريخ، IV، 173–188.

5 - QONIAM,op.cit, p3.

6 – ن م. ص 3.

7 - THEOPHRASTE, Avst.ple.N,5,2, cité par QANIAM..op cit p3.

8 - QONIAM, op.cit, p3.

9 – ن م –ن ص.

10– التيجاني (عبد الله بن محمد)، ت717هـ / 1317م، الرحلة، الدار العربية للكتاب، تونس– طرابلس، 1980م. ص121.

11– نص الخطبة موجود في طبقات ابن سعد، ص14 نقله التجاني، الرحلة–، ص 124.

12– المرزوقي، محمد مقدسة مؤنس الأحبة، ص41.

13– علي يحي معمر، الإباصية في موكب التاريخ،ج 3، ص 207 ومابعدها.

– الجعبيري فرحات، نظام العزابة ص17.

– الشيخ سالم بن يعقوب، تاريخ جربة ص52.

14– ابن خلدون، التاريخ...، ج 6.

15– الرقيق القيروإني (أبو اسحاق ابراهيم بن القاسم) تاريخ إفريقية والمغرب، تح عبد الله العلي الزيدان عزالدين عمر موسى، ط دار الغرب الاسلامي، بيروت 1990، ص31–32.

16– الجعبيري فرحات، نظام العزابة ص20.

17– المرزوقي، مقدمة مؤنس الأحبة، ص44.

18– الشماخي (أبو العباس أحمد) ت928 / 1522م: كتاب السيرط حجرية، القاهرة د ت.ص 128.

19– سالم بن يعقوب، تاريخ جربة، ص62–63.

20– من الناحية الأثرية تجدر الملاحظة أن البرج الكبير بجربة (برج الغازي مصطفي) يحمل بداخله بقايا حصن مربع الشكل ذي مدخل قبلي أبراجه الركنية عبارة عن صهاريج ماء وما نستبعد أنه رباط أغلبي أو تحوير لرباط أغلبي من جهة ثانية يلاحظ عند موقع للة الحضرية وجود أسس لحصن مربع الشكل يحتاج إلى الحفر والدراسة.

21– الشماخي، السير (ط ح) ج ص161.

22– الشماخي، ن م، ن ص.

23– الباروني، الأزهار الرياضية، ص165.

24– أبو زكريا (يحين أبي بكر)، ت في ق 5 هـ / 11م، كتاب السيرة وأخبار الأيمة، تح.عبد الرحمن أيوب، الدار التونسية للنشر، 1985م.– م م ص92.

انظر حول هذه المسألة التفاصيل في:

– الباروني، الأزهار الرياضية..م م ص 100 ومابعدها.

– عبد الرزاق (محمود إسماعيل)، الخوارج في بلاد المغرب ط الدار البيضاء 76 –ص 15–159.

25– انظر التفاصيل في:

محمد بن حسن، القبائل والرياف المغربية في العصر الوسيط، دار الرياح الأربع، تونس 1986، ص 103–129 و ص 162–163.

26– أبو زكريا، كتاب السيرة...م م ص147.

27– نفس المصدر ص148.

28– انظر تفاصيل هذه الحوادث ومواقف المصادر منها في مقال الأستاذ بورويبة

BOUROUIBA (R.), "L'île de Djerba de la conquete musulmane à la conquete Almoahade" CHJ 5avril 82) Tunis, 86, p60.

29– راجع حوله: الجعبيري، نظام، 155–156.

30– أبو زكريا، كتاب السيرة، ص 240.

31- MZABI(H), La Tunisie Du sud est.Tunis, 1993 TLATLI (S.E), Djerba île des lotophage, Tunis, 1967.

البكري، المغرب، ص19.

32– أبو زكريا كتاب السيرة، ص189.

33– محمد بن حسن، القبائل والأرياف، ص 164.

34– أبو زكريا، كتاب السيرة، ص241 .

35– الدرجيني، الطبقات، ج 2 ص199.

36– الشماخي، السير(ط ح)، ص345.

– انظر: الجعبيري فرحات، نظام، ص159–160.

37– محمد بن حسن، القبائل والأرياف، ص 164–165.

38– الشماخي، السير (ط ح) ص404.

أبو زكريا، كتاب السيرة...، ص241.

39– انظر حول هذه المسألة التفاصيل في:

الجعبيري، نظام ...، ص23.

40– ن م، ص66–67.

41– ن م، ص29.

42– ن م، ص23.

43– ن م، ص67.

44– ن م، ص 92 – 95.

45– الشماخي، السبر (ط ح)، ص371.

46– الجعبيري، نظام..، ص178.

47– أبو زكريا، كتاب السيرة، ص244.

48– يتحدث التجاني عن ثورة نكارية بينما تدل مجريات الأحداث من مكان المعركة وضحاياها أن الاضطرابات لا تهتم النكار وحدهم، انظر:

– التجاني، الرحلة...، ص 125.

– الجعبيري، نظام..، ص 297–299.

GOLVIN (L), Djerba à la période des Zirides, CHJ (Avril 1982) p36 - 37.

49– أبو زكريا ، كتاب السيرة ، ص243.

50– ن م، ن ص.

51– الجعبيري، نظام..، ص298، (نقلا عن الوسياني ص16).

52- أبو زكريا، كتاب السيرة...، ص244.
53- الجعبيري، نظام...، ص298 (نقلا عن الوسياني ص16).
54- التجاني، الرحلة...، ص125.
55- يحيى معمر، الإباضية...، ج 3.
- سالم بن يعقوب وقاسم قوجة، «رد على مقال نشر بالحياة الثقافية سابقا» في مجلة الحياة الثقافية، عدد 38، 1985، ص 247 - 250.
56- محمد بن حسن، القبائل والأرياف...، ص197.
57- ابن عذاري (محمد المراكشي)، نهاية القرن 7 هـ / 13م، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 4 أجزاء تح. كولان وبروفنصال نسخة بيروت (دار الثقافة)، ط 1983، ص126.
58- ابن خلدون، التاريخ، ج 46 ص362.
التجاني، الرحلة، ص126.
- بوراس، مؤنس...، ص101.
حول مصادر هذا الحدث انظر مقال بوروبية المذكور
59- ابن خلدون، التاريخ...، ص25 ص 429.

أولوية القرآن في النظرية الأصولية عند الشاطبي

وائل حلاق ◆

شهدت حركة البحث العلمي في ميدان الدراسات الإسلامية تقدُّماً ملحوظاً في الآونة الأخيرة؛ حيث بدأ الكشف التدريجي عن الصلة الرابطة بين الكتابات الإسلامية الكلاسيكية، ذات الطابع الشكلي المحكم، وبين الظروف الاجتماعية أو المشاغل التاريخية لمؤلفيها التي تستتر خلف هذه النصوص، وتقوم بتوجيهها، وتحديد مسارها.

وبدأ الكشف عن وجود صلة غير ظاهرة لكنها وثيقة بين الاستغراق الشكلي في الكتابة التاريخية التحليلية، والنظرية الفقهية السياسية، والكتابات العقدية والشرعية، والأنواع الكتابية الأخرى، ذات الأسلوب الذي لا يحمل أية ملامح شخصية، والذي يبدو لنا في الظاهر أنه أسلوبٌ موحّد متجانس، ذو طابع تكراري على مستوى المضمون، من جهة، وبين الخصوصية التاريخية لمؤلفيها المتعلّقة بهم شخصياً أو بعصورهم التاريخية التي أنتجوا كتاباتهم فيها، من جهة أخرى.

◆ أستاذ الدراسات الإسلامية في جامعة ماكغيل، مونتريال - كندا سابقاً، وهو الإستاذ الفقه الاسلامي بجامعة كولومبيا حالياً. وهذا البحث في الأصل جزء من كتاب جماعي، حرّره وائل حلاق، ودونالد ليتل، تحت عنوان: دراسات إسلامية مهداة لتشارلز آدمز، منشورات دار بريل، ليدن، هولندة، 1991م.
Wael B. Hallaq, Donald P. little (editors): Islamic Studies Presented to Charles J. Adams, E.J. Brill, Leiden, The Netherland, 1991.
عنوان البحث الأصلي:
The Primacy of The Qurlan in Shatibi's Legal Theory
ترجم المقال الباحث حازم زكريا محي الدين.